عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي

(٧٨٨ – ٨٨٢م)

الدلالات السياسية والدينية

عبد العزيز رمضان

مصـــر

شـــهد البلاط البيزنطي منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع الميلاديين تقلـــيداً فـــريداً من نوعه، كان نصيبه من التكرار خمس مرات فحسب، تمثل في إجراء عـــروض شـــاركت فيها فتيات جميلات جلبن من شتي أنحاء الإمبراطورية، وحظيت الفائزة منهن بشرف الزواج من وريث العرش الإمبراطوري.

ولأن هـــذا التقلـــيد يتسم بالطرفة والتفرد في آن واحد، فقد استرعى انتباه عدد مـــن الباحثيـــن المحدثين الذين أقبلوا علي تناوله بالبحث والدراسة، واختلفوا فيما بينهم حـــول مدي مصداقيته من الناحية التاريخية، ففي حين اعتبره البعض[١] واقعاً تاريخياً لا يقـــبل الشـــك مدلليـــن علي ذلك بأنه ورد في عدد من المصادر البيزنطية المعاصرة، تناولـــه البعض الآخر[٢] علي أنه مجرد إبداع أدبي صرف لا يرقي إلي مستوي الحقيقة التاريخية معتمدين في رأيهم هذا علي أن أغلب المصادر التي أوردته سير قديسين.

وهذه الدراسة مجرد محاولة لتحديد تاريخية ذلك التقليد من خلال مصادر هذه الفـــترة لاســـتجلاء أســـبابه ودلالاته السياسية والدينية، وهو الأمر الذي لم يتطرق إليه الدارسون الذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث[٣].

---

١ Treadgold, W.T., "Bride-Shows of the Byzantine Emperors," *B*, 49 (1979) 395-413; Garland, L.,. *Byzantine Empresses:Women and power in Byzantium AD.527-1204*, New york, 1999, 73, 80-1, 90, 96.

٢ Rydén, L.," The Bride-Shows at the Byzantine Court: History or Fiction", *Eranos*, 83 (1985), 175 – 91; Speck, P., *Kaiser Konstantin VI*, 2vols, Munich, 1978, I, 203 – 8.

٣ ركـــز تريدجولد في بحثه "عروض عرائس الأباطرة البيزنطيين" علي الآثار السياسية التي نتجت عن فشل الـــزيجات الـــناجمة عن هذه العروض،بينما عرضت جرلاند للموضوع في سياق كتابها "المراة والسلطة في بيزنطة" دون الخوض في تفصيلاته.

وكـــان أول هـــذه العروض في عهد الإمبراطورة إيريني Irene، وتحديداً في منتصـــف عـــام ٧٨٨م، ويحدثنا عنه كل من الراهب ثيوفانيس Theophanes وكاتب ســيرة القديـــس فيلاريتوس المعطاء St. Philaretus the Almsgiver،[٤] حيث يشير ثيوفانـــيس إلـــي أن الإمـــبراطورة إيرينـــي أرســـلت وفـــداً مـــن القضـــاة برئاســـة البروتوســـباثاريوس ثيوفانيس protospatharios Theophanes للبحث عن عروس تلـــيق بأبنها قسطنطين السادس (٧٨٠ – ٧٩٧م) Constantine VI الذي كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره[٥].

ويستكمل كاتب سيرة القديس فيلاريتوس القصة، فيخبرنا بأن القضاة بحثوا في كافـــة أنحـــاء الإمـــبراطورية، جـــنوباً وشـــمالاً وغرباً، دون أن يجدوا فتيات يناسبن الإمـــبراطور الشـــاب، فواصلوا رحلتهم الى شرق الإمبراطورية حتي بلغوا بلدة أمنيا Amnia وفـــيها أســـتهل القضـــاة عملية البحث بقصر قديم وكبير لنبيل محلي يدعي فيلاريـــتوس، كان قد أنفق ثروته في التصدق علي الفقراء، ورغم أن أهل البلدة حاولوا لفـــت أنظار القضاة إلي فقره، إلا أنهم ظنوا أن تلك مجرد إشاعة روجت لإبعادهم عن الإقامـــة في قصره وعلي نفقته، وتلقاهم فيلاريتوس بترحاب بالغ، ولم يبخل عليهم بما اتيح له من كرم الضيافة، وساعده في ذلك كبار رجال البلدة.

ويواصل كاتب السيرة حديثه، فيخبرنا بأن القضاة سألوا فيلاريتوس عن بناته، فأخـــبرهم بأنه غير مسموح لهن بمغادرة حجراتهن، وتحت إلحاح شديد منهم سمح لهم فيلاريـــتوس برؤيتهن داخل حجراتهن الخاصة، وعندما وقعت أعين القضاة علي بناته وحفـــيداته لـــم يتمكنوا من تمييز حفيداته عن أمهاتهن لفرط جمالهن الذي بهر الجميع، ولمـــا كانـــت البـــنات قد تزوجن بالفعل، فقد تحول القضاة نحو حفيداته الثلاث ماريا

---

[٤] كاتـــب هـــذه الســـيرة هو ليقناس الأمني، ابن شقيق القديس فيلاريتوس، وكتبها في حوالي عام ٨٢١ م أو ٨٢٢ م.انظر

La vie de S. Philarète, ed. et trad. Franc. M .H. Fourmy & M. Leroy, *B*, 9(1934), 85-107, esp 98; Rydén, L. , "The Revised Version of the Life of St. Philaretos the Merciful" and the "Life of St. Andreas Salos", ***Analecta Bollandiana***, 100 (1982), 485-95,esp.485.

[٥] Theophanes, *Chronographia*, trans. H. Turtledove, Philadelphia, 1982, 147.

Maria وميرانثـيا Myranthia ويؤنثيا Euanthia، وبعد أن أخضعوهن لاختبارات أعـدت سـلفاً[٦]، وجـدوا أنهـن جميعاً مؤهلات للمشاركة في العرض النهائي بالقصر الإمبراطوري، فاصطحبوهن مع كافة أفراد أسرة فيلاريتوس إلي القسطنطينية.

ويسـتطرد كاتب السيرة حديثه مشيراً إلي أن القضاة صادفوا توفيقاً في العثور علـي فتـيات أخريات تنطبق عليهن الشروط والصفات المؤهلة للمشاركة في العرض الإمـبراطوري، وكانـت بينهـن فـتاة ثـرية وجميلة ذكرت بأسم "ابنة جيرونتيانوس Gerontianus"، التـي رفضـت بـازدراء اقتراح ماريا حفيدة فيلاريتوس بعقد اتفاق ودي بين المتنافسات، قائلة "طالما أنني الأكثر ثراءً والأسمي نسباً والأفضل هيئة، فمن المؤكد أنني الفائزة".

وفـي الـبلاط الإمـبراطوري، تقدمت ابنة جيرونتيانوس جميع المرشحات، وحيـنما رآها الإمبراطور ووالدته قالا لها: "إنك رائعة الحسن والجمال، غير أن تأنقك يـدل علي أنك لن تعني بأمر الإمبراطور"، ثم قدما لها الهدايا، ونحوها جانباً، وبعد أن فعلـوا ذلك مع الأخريات، الواحدة تلو الأخرى، جاءت حفيدات فيلاريتوس في النهاية، وعـندما وقعـت أعين الإمبراطور ووالدته عليهن، خلبوا بجمالهن ورشاقتهن، فخطب الإمبراطور الفتاة الكبري ماريا[٧].

علـي هـذا الـنحو يسرد كاتب سيره القديس فيلاريتوس قصة أول عروض العـرائس الإمبراطورية، ويتفق مع ثيوفانيس في أنه جاء نتيجة رغبة الإمبراطورة الأم

---

[٦] يذكر كاتب السيرة أن هذه الاختبارات ركزت في المقام الأول علي المقاييس المثالية لدرجة الجمال وهي طول القامة ومقاس الخصر والقدمين، دون الإشارة إلي آية صفات أخري تتعلق بالأخلاق أو التدين.

[٧] *S.Philarete*, 135 43; Garland, *Women and Power*, 81; Treadgold, *Bride- Shows*, 398-9; Kazhdan, A.,& Sherry, L. F., " The Tale of a Happy Fool : The Vita of St.Philaretos the Merciful (BHG 1511z- 1512b) ",*B*, 66/2 (1996), 351-62,esp.355-7.

ويري كجدان وشيري أن قصة ماريا في هذا العرض تشابه إلي حد بعيد قصة سندريلا الفلكلورية، حقيقة أن ماريا لم تتعرض لاضطهاد زوجة أب شريرة، غير أن حسن حظها وجمالها والبهار الإمبراطور بها كان عاملاً حاسماً في اختيارها.

Kazhdan & Sherry, *Happy Fool*, 355.

إيرينـــي في تزويج ابنها قسطنطين السادس، وأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها، ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقاً؟.

تتجه جرلاند Garland إلي أن إيريني استحدثت هذا التقليد لاستخدامه كوسيلة دعايـــة لنظامها الحاكم، أو ربما لأن إيريني نفسها أختيرت من قبل عن طريق عرض مشابه عند زواجها من الإمبراطور ليو الرابع (٧٧٥ – ٧٨٠م) Leo IV[٨]، بينما يعتقد تـــريدجولد Treadgold أن إيرينـــي أقدمـــت علي ذلك لحفظ ماء وجه الهيبة والكرامة الإمـــبراطورية بعـــد أن سحب ملك الفرنجة شارلمان Charlemagne وعده بتزويج إبنـــته روتـــرود Rotrud مـــن قسطنطين السادس، ولتؤكد أن ابنها يمكنه الزواج من أجمل جميلات الإمبراطورية دون الحاجة إلي البرابرة الفرنجة[٩]، ويدلل تريدجولد علي صـــحة رأيـــه برواية إينهارد Einhard كاتب سيرة شارلمان، التي تشير إلي أن ملك الفـــرنجة قـــرر فـــي منتصـــف سنة ٨٨٧م سحب وعده بتزويج إبنته من الإمبراطور البيزنطي[١٠].

وربمـــا يكـــون من الأصوب أن ننظر إلي الأمر من زاوية أخري، فالمتصفح لسياسة الإمبراطورة إيريني وشخصيتها، يدرك من الوهلة الأولي أنه أمام امرأة بهرها بـــريق العـــرش الإمبراطوري وملك عليها كل حواسها، فأرادت منذ اللحظة الأولي أن

---

٨ Garland, *Women and Power*, 73, 81.

تعتمد جرلاند في إفتراضها الثاني علي أنه لا توجد أسباب واضحة لاختيار إيريني كعروس للإمبراطور ليو الرابع، حيث كانت فتاة يتيمة تنتمي إلي أسرة سارنتابيخوس الأثينية غير المشهورة، ولكنها في الوقت ذاته تؤكد علي عدم وجود دليل دامغ علي مشاركة إيريني في مثل هذا النوع من العروض

٩ Treadgold, *Bride- Shows*, 396-7.

١٠ اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة. عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٨ م، ص١٢٠، ١٢٢-١٢٣.

ويذكر اينهارد أن سبب عدم إتمام شارلمان هذه الزيجة هو تعلقه الشديد ببناته إلي الدرجة التي جعلته لا يستطيع أن يؤدي عملاً من الأعمال إلا إذا كن في صحبته، ففرض عليهن التزام القصر وحرم عليهن مغادرته، كما أنه لم يجز لهن الزواج.انظر كذلك السيد الباز العريني، اينهارت، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٢١-٢٢.

تفـــرض علـــي ابـــنها نوع من الوصاية الدائمة، فيكون طوع أمرها، بحيث يخلص لها العـــرش وتغـــدو صاحبة الكلمة الأولي والأخيرة في شئون الحكم، امرأة لم تتردد في ســـمل عينـــي ولدها حينما استشعرت منه خطراً يهدد بقائها علي سدة الحكم[11]، إمرأة بهـــذه الشاكلة هل كان من المتوقع أن تقبل بزواج ولدها من ابنة أقوي ملوك أوروبا في ذلك الحين؟

تشـــير أكـــثر الشواهد إلي أن إيريني لم تكن راغبة في إتمام مثل هذه الزيجة، وحتـــي إذا كـــان إيـــنهارد صـــادقاً في روايته، وأن شارلمان هو الذي تنصل من ذلك الأمـــر، فالـــراجح أن إيرينـــي كانت سعيدة بذلك، بل وربما تنفست الصعداء، فراحت تبحـــث عن عروس تناسب ولدها وطموحاتها السياسية في آن واحد، عروس لا تشكل أدنـــي خطـــر أو تهديـــد مـــن ذلـــك الـــنوع الذي كان من المحتمل أن تشكله الأميرة الفرنجـــية[12]، بـــل ربما كان ثيوفانيس الأكثر مصداقية من إينهارد حينما أشار إلي أن رفـــض إتمـــام هذه الزيجة جاء من جانب إيريني نفسها، خاصة وأنه يقرن ذلك بقرار الإمبراطورة تزويج ابنها من ماريا حفيدة فيلاريتوس، ويؤكد علي أن هذه الزيجة تمت بضـــغط مـــنها وضد رغبة الإمبراطور الشاب الذي كان مغرماً بابنة شارلمان[13]، وهو

---

[11] عن سياسة وشخصية الإمبراطورة إيريني. انظر علية الجنزوري، الإمبراطورة إيرين، القاهرة، ١٩٨١م
Barbe, D., *Irène de Byzance : la femme empereur*, Paris, 1990.

[12] يـــري بعض الباحثين أنه كان للبابوية دوراً في فشل هذه الزيجة، وأنها إذا كانت قد باركت خطي إيريني في سياستها المتحمسة لعبادة الأيقونات، والتي تجلت في مجمع نيقية عام ٧٨٧م، فقد ساورتها المخاوف من النتائج التي تترتب علي التحالف بين بلاطي بيزنطة وآخن، انظر، عفاف صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية زمن شارلمان، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٩٥-٩٦. ويتفق الباحث مع وجهة نظر الأستاذتين علية الجنزوري وعفاف صبرة حول أسباب فشل هذه الزيجة، حيث تقول الدكتورة علية الجنزوري: "ثمة رأي نرجح كفته عن سبب فسخ إيريـــني لخطـــبة أبنها من أبنة شارل ملك الفرنجة، وهو أنها خافت أن يصبح قسطنطين السادس ووالد زوجته شـــارل قوة تنتزع منها صولجان الحكم، وأن يتمكن قسطنطين بمساعدته من اعتلاء منصة الحكم بسرعة، اما الدكـــتورة عفاف صبرة فتقول: "فكرت إيرين في إلغاء مشروع زواج أبنها من أبنة شارلمان وذلك لخوفها من اتحاد قوة شارلمان مع ابنها الذي بلغ سن الرشد وأصبح من حقه أن يحكم، ولم تكن عنده أي نوايا للتنازل عن الحكـــم، فـــإذا مـــا تـــم زواجه من أبنة شارلمان فسيؤدي ذلك إلي تقوية مركز أبنها علي حسابها. "انظر علية الجنزوري، ايرين، ص٣٠؛عفاف صبرة، الإمبراطوريتان، ص٩٥.

[13] *Theophanes*, 147-48.

الأمـــر الذي أكده كاتب سيرة الإمبراطورة إيريني حينما أشار إلي أنها بنفسها هي التي اختارت العروس من بين الفتيات الأخريات[١٤].

وهكـــذا كان العرض الذي أقامته الإمبراطورة إيريني لتزويج ابنها سابقة سار علـــي نهجهـــا عـــدد ممـــن قدر لهم الجلوس علي العرش البيزنطي بعدها، إذ أنه بعد الإطاحة بها سنة ٨٠٢م علي يد وزير ماليتها نقفور الأول Nicphorus I، أقام الأخير ثانـــي عـــرض عرائس إمبراطوري معروف لتزويج ابنه ووريث عرشه ستوراقيوس Stauracius، ومصـــدرنا الوحـــيد عن هذا العرض هو ثيوفانيس، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"بعـــد أن قـــام نقفـــور ببحث واسع النطاق شمل كافة أراضي الإمبراطورية الواقعـــة تحت سلطته لإختيار الفتيات اللاتي يصلحن للزواج من ابنه ستوراقيوس، وقع إختـــياره علـــي ثيوفانو الأثينية Theophano of Athens التي ترتبط بصلة القرابة بالإمـــبراطورة القديســـة إيريني، ورغم أنها كانت مخطوبة فعلاً لأخر غيره، وشاركته الفـــراش مـــرات عديدة، إلا أن نقفور لم يأبه بذلك، ففصلها عنه وزوجها لابنه محطماً بذلـــك وبشـــكل مخـــز كل القوانين والأعراف، ولم يكتف بذلك، بل تخير لنفسه فتاتين أخريتين أكثر جمالاً، وأنغمس معهن في الفسق طوال أيام الزفاف، جالباً بتصرفاته تلك سخرية واشمئزاز الجميع[١٥]".

ورغم ما يبدو واضحاً في رواية ثيوفانيس من تحامل شديد علي نقفور، إلا أن مـــا يعنينا منها هو البحث عن دافع نقفور الحقيقي من وراء إجراء هذا العرض، وهو بالطـــبع لـــم يكن الإعزاز لذكري إيريني أو الاعتزاز بتقليد استحدثته، وثيوفانيس نفسه يقـــدم لـــنا ذلـــك الدافع عندما أشار – بصورة متعمدة – إلي أن العروس الفائزة ترتبط بصلة قرابة للإمبراطورة إيريني، وهو أمر ربما كان يمثل أهمية قصوى لنقفور، الذي أدرك أن فـــي نظـــر البيزنطييـــن مجرد مغتصب للعرش الإمبراطوري، والأسوأ أنه

---

١٤ Halkin, F., "Le vie de l'impératrice sainte Irene", *Analecta Bollandiana*, 106 (1988), 5-27, esp. 16; Treadgold, W. T., "The Unpublished Saints' Life of the Empress Irene", *BF*, 7 (1982), 237-51.

١٥ *Theophanes*, 164.

اغتصـــبه مـــن الإمبراطورة إيريني التي تمتعت بشعبية جارفة بسبب مواقفها المعادية للحـــركة اللأيقونـــية، والتـــي دفعت الكنيسة البيزنطية إلي تبجيلها ورفعها إلي مصاف القديســـات[١٦]، ولاشـــك فـــي أن نقفـــور كـــان يعلم مقدماً أن ثيوفانو تنتمي إلي أسرة الإمبراطورة إيريني، وأنه كان حريصاً أشد الحرص علي تدعيم وجود أسرته الحاكمة وإضـــفاء الشـــرعية علـــيها مـــن خـــلال ربطها بصلة النسب مع أسرة الإمبراطورة السابقة[١٧].

أمـــا عـــن ثالـــث هذه العروض فقد أقيم في عام ٨٣٠م بعد وفاة الإمبراطور ميخائـــيل الثانـــي (٨٢٠ – ٨٢٩م) Michael II حيـــث قـــررت زوجته يوفروسيني Euphrosyne – إبـــنة قســـطنطين السادس من ماريا الأمنية التي فازت بأول عرض عـــرائس إمبراطوري – إجراء مسابقة لتزويج ابن زوجها ثيوفيلوس (٨٢٩ – ٨٤٢م) Theophilos الـــذي كـــان قد بلغ السابعة عشر من عمره، مواصلة بذلك التقليد الذي بواســـطته إقترنـــت أمهـــا بأبيها، ومصدرنا عن قصة هذا العرض هو الكاتب الحولي سيميون اللغثيت[١٨] Symeon the Logothete، الذي يخبرنا بها قائلاً:

"لقـــد أرسلت – يوفروسيني – مبعوثيها إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتـــيات الجمـــيلات مـــن أجل تزويج ابنها ثيوفيلوس، ورافقت المرشحات بنفسها إلي القصـــر الإمـــبراطوري، ثم أعطت ثيوفيلوس تفاحة ذهبية قائلة له "امنحها لمن تروق لـــك"، وكان من بين الفتيات الجميلات واحدة رائعة الجمال تدعي كاسيا Kassia، فتن ثيوفـــيلوس بجمالهـــا وهيئـــتها، فخاطـــبها قائلاً "من خلال المرأة جلبت الشرور علي

---

١٦ عن سياسة الإمبراطورة إيرني من الحركة اللأيقونية. انظر،

Barbe, *Irene*, 313 ff ; Garland, *Women and Power*, 92–4

١٧ Garland, *Women and power*, 90; Treadgold, *Bride- Shows*, 401.

١٨ شغل سيمون وظيفة لغثيت الخزانة العسكرية(لغثيت الاستراتيوتيكون) وهو المشرف علي تقدير الضرائب المفروضة علي أسر الجلود وحالات الإعفاء منها. لمزيد من التفاصيل الظر،

Bury, *Adm. System*, 90ff ; Kazhden. A., "Logothetes Tou Stratiotikou", *ODB*, 2(Newyork, 1991), 1248.

الـرجل"، فأجابته قائلة "ومن المرأة أيضاً جاء الخير كل الخير")، فجرح قلب ثيوفيلوس بردها فتجاوزها مانحاً التفاحة لثيودورا، الفتاة البافلاجونية[١٩]".

ومـن الملاحظ أن رواية سيميون اللغيث لا تشير بصورة صريحة إلي تدخل مـن جانب يوفروسيني في اختيار العروس، مثلما حدث في حالتي الإمبراطورة إيريني والإمـبراطور نقفـور الأول، فثيوفيلوس – طبقاً لرواية سيميون – كان صاحب القرار الأول فـي عملية الاختيار، غير أن ذلك قد لا ينهض دليلاً قاطعاً علي عدم التدخل من جانـب بوفروسـيني، فهي التي أرسلت المبعوثين لإحضار الفتيات، ثم رافقتهن بنفسها إلـي القصـر الإمـبراطوري، حقيقة أن هدفها كان مواصلة تقليد كانت هي ذاتها أول ثمـراته، إلا إن ذلك لا يمنع أنها تدخلت بصورة أو بأخري في عملية الاختيار، وربما حـدث ذلـك دون دراية سيميون اللغثيت، خاصة وأن هناك دافعاً قوياً يجعلها حريصة أشـد الحـرص علـي اختـيار عروس ثيوفيلوس، فالعصر هو عصر مناهضة عبادة الأيقونـات التـي حمل لواءها أباطرة الأسرة الأيسورية منذ عهد ليو الثالث (٧١٧ – ٧٤١م) Leo وحتـي عهـد ميخائـيل الثانـي (٨٢٠ – ٨٢٩م) أول أباطرة الأسرة العموريـة وزوج يوفروسـيني الـراحـل، والـذي كـان من أشد المتحمـسين لمذهـب تحطـيم الأيقونـات، وكـان ثيوفـيلوس نفسـه عـلي

---

١٩ Leo Grammaticus, *Chronographia*, ed. I.Bekker, *CSHB*, Bonn, 1824, 213-14; Pseudo- Symeon, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonn, 1838, 624-25.
هناك رواية أخري مختلفة يقدمها لنا كاتب سيرة الإمبراطورة القديسة ثيودورا مفادها أن الإمبراطور ثيوفيلوس أرسل موظفي البلاط إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات المؤهلات للزواج منه، وأنه انتقي مـن بينهـن سـبعة، قدم لكل واحدة منهن تفاحة ثم أرسلهن إلي الحجرات المخصصة لهن، وفي اليوم التالي، أسـتدعى الفتيات وسألهن عن التفاحات غير أنهن اكتشفن ضياع التفاحات فيما عدا ثيودورا التي بسطت كفيها لتكشـف عن تفاحتين، فدهش الإمبراطور لما رأي وسألها عن تفسير لذلك، فأجابته بأنها قابلت في طريقها إلي القصر قديساً أعطاها التفاحة وتنبأ لها بأن الإمبراطور سيقدم لها تفاحة ثانية، وأن التفاحتين معاً ستكونان طريقها للفوز علي الفتيات الأخريات، وعندئذ أعلنها الإمبراطور ثيوفيلوس زوجة له، انظر،
"The Life of St. Theodora the Empress", trans. M.P. Vinson, in.. *Byzantimne Defenders of Images, Eight Saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington D.C., 1998, 353-82, esp.363-65

شـــاكلـــــة أبـــيـــــــه في سياســـــــــته اللاأيـــقونية[٢٠]، ولما كانت يوفروسيني – شـــأنها في ذلك شأن أكثر نساء القصر[٢١] – من أشد المتحمسين لعبادة الأيقونات، فمن المحـــتمل أنهـــا كانـــت حريصـــة علي اختيار عروس تشاطرها هذه الحماسة، وكانت ثيوردورا البافلاجونية هي تلك العروس[٢٢].

وبعد وفـــاة ثـــيوفيلوس عام ٨٤٢ م، تولت ثـــيودورا الوصـــاية علي ابـــنها ميـــخائـــيل الثـــالـــث (٨٤٢ – ٨٦٧م) Michael III الذي لم يكن قد أتم العامين من عمره، بيد أن هذا الطفل سرعان ما أصبح مشكلة كبري بالنسبة لها عندما بلغ الخامسة عشـــر، حيـــث أقام علاقة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي يودوكيا إنجيرينا Eudokia Ingerina، وكانـــت خطورة هذه العلاقة من وجهة نظر الإمبراطورة الأم أن يودوكـــيا هـــذه تنتمـــي إلـــي أســـرة مارتيناكيوس Martinakios المؤيدة للحركة اللاأيقونية[٢٣]، ولأن ثيودورا لم تكن لتسمح باستمرار مثل هذه العلاقة التي تتعارض مع مـــيولها الدينـــية، فقـــد قررت إقامة عرض عرائس لتزويج ابنها، متبعة في ذلك نهج سابقتها يوفروسيني عندما اختارتها هي نفسها بنفس الأسلوب ولذات السبب.

ويـــروي لـــنا كاتب سيرة القديسة إيريني الصغري St.Irene the younger قصـــة هـــذا العرض قائلاً أن الإمبراطورة ثيودورا قررت تزويج ابنها ووريث العرش

٢٠– – من احدث الدراسات التى تناولت الحركة اللايقونية ، انظر

Martin, E.G., *A History of the Iconoclastic Controversy* , London ,1978 ; Bryer , A., & Herrin , J.,(eds.), *Iconoclasm* , Birmingham , 1977 ; Gero ,S., *Byzantine Iconoclasm during the Reign of Leo III* ,Louvain ,1973 ; Idem , *Byzantine Iconoclasm during the Reign of Constantine V* , Louvain , 1977 .

٢١– عن موقف نساء القصر المؤيد لعبادة الايقونات ، انظر

Huxley ,G.,'Women and Byzantine Iconoclasm', in: J.Y.Perreault (ed.), *Les femmes et le monachisme byzatine*, Athens, Canadian Archeological Institute, 1991 , 11-24;
Talbot,A.M.,& Kazhdan,A.,'Women and Iconoclasm', ***BZ*** , 84-85 (1991-92), 391-408;
Hatile, P.,'Women of Disipline during the Second Iconoclast Age',***BZ*** , 89 (1996), 37-44.

٢٢– عن موقف الإمبراطورة ثيودورا من الحركة اللايقونية ، انظر

Garland, *Women and Power*, 95-108; *Life of St. Theodora*, 353-382.

٢٣– ولدت يودوكيا بالقسطنطينية عام ٨٤٠ م ، وتوفيت عام ٨٨٢ م ، وكان والدها ينحدر من اصل اسكندنافي ، وعمل في وظيفة بالقصر الإمبراطوري ، انظر ،

Kazhdan, A.,'Eudokia Ingerina', *ODB*, 2 (NewYork,1991), 739.

مـــن الأوساط الشهيرة الطيبة السمعة، ومن أسرة تقية مشهود لها بإيمانها الأرثوذكسي، فـــتاة تتسم بالفضيلة وتفوق من هن في مثل عمرها في نقاء الروح وجمال الهيئة، لذلك أرســـلت مبعوثيها إلي كافة أنحاء الإمبراطورية لاختيار الفتيات اللاتي تتوافر فيهن هذه الخصـــال، ومـــن ثـــم فقـــد تهافت المواطنون من شتي الأنحاء علي إرسال بناتهم إلي العاصـــمة، وكـــان مـــن بينهن إيريني، الفتاة المشهود لها بصفاء الروح وفتنة الجسد، والتـــي أرســـلها والداهـــا مـــع شقيقتها من موطنهما في قبادوقيا Cappadocia إلي القسطنطينية[٢٤].

ويـــبدو مـــن رواية كاتب السيرة أن الإمبراطور ثيودورا كانت حريصة علي تمـــيز عـــروس ولدها بالفضيلة ونقاء الروح، وأن تكون من أسرة مشهود لها بإيمانها الأرثوذكســـي، وهـــي بذلك تعبر عن ميولها الدينية ورغبتها في إبعاد يودوكيا إنجرينا عـــن المشاركة في هذا العرض، إذ أنها كانت تعي تماماً أن مثل هذه الشروط المتعمدة لا يمكـــن بأي حال أن تنطبق علي يودوكيا وأسرتها، حقيقة أن الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ – ٩١٢م) Leo VI يشـــير فـــي مديحه لباسيل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦م) Basil I، إلـــي أن ميخائـــيل الثالـــث كان لديه قدر من التأثير علي مجريات الأمور بحيث أتاح ليودوكـــيا فرصة المشاركة في هذا العرض[٢٥]، غير أن هذه المشاركة كانت غير ذات جـــدوي لأن نتيجـــتها كانـــت معـــروفة مقدمـــاً، حيـــث يشير سيميون اللغثيب إلي أن الإمـــبراطورة ثـــيودورا لعبت دوراً رئيسياً في رفض يودوكيا إنجرينا، والضغط علي ولدهـــا لقـــبول المرشـــحة الفائـــزة يودوكـــيا – أخري – والتي تنتمي إلي أسرة غير مشهورة[٢٦].

٢٤- *The Life of St. Irene Abess of Chrysobalanton* , ed. & trans.M.O.Rosenqvist . (Uppsala, 1986), 8-10.

انظر نص تلك السيرة على الموقع التالى، http//www.fordham.edu;

Treadgold, *Bride-Shows*,405; Kazhdan, A., Irene of Chrysobalanton ,*ODB*, 2 (New york .1991),1010.

٢٥- Vogt,A., & Hausherr, I.,'Oraison funebre de Basil I', *OCP*, 26 (1932), 54.

٢٦- *Leo Grammaticus*, 229-30; *Pseudo-Symeon*, 655.

وفي عام ٨٨٢م، اقامت يودوكيا إنجرينا أخر عروض العرائس الإمبراطورية المعـــروفة لـــتزويج ابـــنها لـــيو السادس، الذي كان قد بلغ السادسة عشر من عمره، ومصـــدرنا عنه هو كاتب سيرة القديسة نيوفانو[٢٧] St.Theophano، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"لقـــد بـــدأت عملـــية البحـــث عن الفتيات الجميلات، المتألقات في فضائلهن، لاختـــيار عروس للإمبراطور ليو الحكيم، فأرسل الإمبراطور باسيل[٢٨] مبعوثيه إلي كل مديـــنة ومقاطعـــة للبحث عن فتاة تليق بالإمبراطور الأكثر وسامة، فجلبوا معهم فتيات كثـــيرات من شتي الأنحاء كذلك قررت الإمبراطورة يودوكيا زوجة الإمبراطور باسيل اختـــيار بعض الفتيات الجميلات من مسقط رأسها للمشاركة في هذا العرض، وكان من بينهـــن الـــرائعة ثـــيوفانو، وعلـــي ذلك تم إختيار إثنتي عشر فتاة حشدت في الجناح الإمـــبراطوري لقصـــر ماجـــناورا Magnaura الشـــهير، وبقيـــن هـــناك في انتظار الإمبراطور وزوجته"[٢٩].

ويستكمل كاتب السيرة روايته قائلاً:

٢٧- Kurtz, E., (ed.), *Zwei Griechische Texte uber die Heilige Theophano, die Gemahlin Kaisers Leo VI*, St. Petersbourg, 1898.

تعذر علي الباحث الرجوع الى هذا المصدر، ومن ثم فقد اعتمد على النصوص المقتبسة منه والتى ترجمها كل مـــن تـــريدجولد و جـــرلاند في بحثيهما ،وكاتب هذه السيرة كان صديقا لعم ثيوفانو، العروس الفائزة في هذا العرض،

٢٨- واصل ميخائيل الثالث علاقته مع يودوكيا انجرينا رغم زواجه، حيث حملت منه ابنهما ليو السادس، وحتي يضـــمن اعـــتلاء ابنه العرش كامبراطور شرعي ، زوج يودوكيا من باسيل المقدوني ورفعه الى جواره على العرش كإمبراطور شريك ، انظر ،

Mango, C., 'Eudocia Ingerina, the Normans and the Macedonian Dynasty', ***Zbornik Radova Vizanto-Loskog Instituta***, 14-15 (1973), 17-24.

٢٩ Kurtz, *Zwei Texte*, 5 (tr. Treadgold, 407.)

عـــند هـــذه النقطة يسجل كاتب السيرة انه كان من بين المرشحات فتاة اثيلية اشتهرت بالعرافة و التنجيم ، تنـــبأت بـــان الفتاة التى سترتدى حذاءها اولا وقت وصول الإمبراطور وزوجته هى التى ستفوز بهذا العرض، وبطبيعة الحل كانت ثيوفانو هى تلك الفتاة، Treadgold, *Brid-show's*, 407.

" وعـــندما رأتهـــا الإمبراطورة أسرت بجمالها وخفة روحها، فتركت الباقيات وتقدمـــت نحوهـــا، وعـــندما أصبحت علي مقربة منها شدهت لسحر طلعتها، وعندما ســـألتها عن أسرتها ومكان مولدها، علمت أن الدماء الإمبراطورية تجرى في عروقها، فأخذت يدها وتوجهت نحو زوجها الإمبراطور"[٣٠].

وعـــند هـــذا الحـــد يوحي كاتب السيرة بأن اختيار الإمبراطورة قد وقع علي ثيوفانو، لكنه سرعان ما يستطرد حديثه قائلا:

"غير أن الإمبراطورة تفحصت الأخريات وأنتقت منهن فتاتين، وقدمت الهدايا للباقـــيات وأمرتهـــن بـــالعودة إلـــي ديارهـــن، ثـــم اقتادت الفتيات الثلاث إلي الحمام الإمـــبراطوري، وعـــندما كشـــفت عن أجسادهن لاحظت تفوق جمال ثيوفانو، فغطتها بثـــياب إمبراطورية وأخذتها من يدها اليمني إلي الإمبراطور الزوج، وأعلنتها عروس لابنها، وقد بهر الإمبراطور ليو نفسه بها فأخرج من عباءته خاتماً صغيراً مصنوع من اليشب ووضعه في إصبعها"[٣١].

عـــند هذا الحد يختتم كاتب السيرة قصة أخر عروض العرائس الإمبراطورية المعـــروفة بـــزواج ثيوفانو من الإمبراطور ليو السادس، ويتضح من خلالها – كما هو الحـــال فـــي العـــروض الســـابقة – أن ليو لم يكن له دوراً مؤثراً في اختيار عروسه، فالإمـــبراطورة الأم يودوكيا هي التي لعبت الدور الرئيسي في اختيار المرشحة الفائزة دون أن تضـــع اعتـــبارا لـــرأي ولدها، ويبدو أن هذا الاختيار قد صدق عليه من قبل الإمـــبراطور باســـيل المقدونـــي، وهـــو الأمـــر الـــذي يؤكده كاتب سيرة يوثيميوس Euthymios عـــندما ســـجل عن لسان الإمبراطور ليو السادس قوله: "إن كافة أعضاء السناتو يدركون جيداً أن هذه الزيجة تمت ضد رغبتي، وإنما خشية غضب والدي"[٣٢].

وعـــند هـــذه النقطة يتبادر إلي الذهن سؤال هام، أنه إذا كانت يودوكيا إنجرينا هي أول من أكتوي بنار عروض العرائس الإمبراطورية حينما استخدمته الإمبراطورة

٣٠- Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Treadgold, 407) .

٣١- Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Garland, 110) .

٣٢- '*Vita St.Euthymii*,' ed.& tr. P. Karlin-Hayter, *B*,25-27(1955-57), 1-72;747-78.

ثـيودورا كوسـيلة لفصلها عن معشوقها الإمبراطور ميخائيل الثالث، فما الذي يدعوها إلـي إقامـة هـذا العرض؟ وإذا عرفنا أن ليو السادس في هذا الحين كان متورطاً في علاقـة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي زوي زاوتزينا[٣٣] Zoe Zautzaina، فمـا هـي الدوافـع الحقيقية وراء تدخلها الواضح في إختيار العروس الفائزة وفرضها علي ابنها ليو بنفس الأسلوب الذي اتبعته ثيودورا مع ابنها ميخائيل الثالث؟.

يـري تريدجولد أن يودوكيا لم يكن لديها سبباً وجيهاً للاعتزاز بمثل هذا التقليد سـوي أنـه قـد أتخذ صفة الثبات في ذلك الحين[٣٤]، بينما تري جرلاند أن العداء الذي نشـب بيـن ليو وأمه يودوكيا، خاصة بعد أن تورطت مع باسيل المقدوني في مؤامرة اغتـيال والـد ليو، الإمبراطور ميخائيل الثالث، هو السبب الذي دفعها إلي الانتقام منه بفرض الزواج عليه من فتاة لا يرغبها[٣٥]، أما شرينرSchreiner فقد ذهب إلي القول – منسـاقاً وراء روايـة كاتـب سيرة القديسة ثيوفانو – بأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها[٣٦].

وربمـا يكون من الأفضل البحث عن الدافع الحقيقي من وراء اختيار يودوكيا للعـروس ثيوفانو في ضوء الأهمية السياسية لذلك الاختيار، ويعد مانجو Mango هو أول من ألقي الضوء علي أهمية أسرة ثيوفانو في اختيارها كعروس لليو[٣٧]، فهي تنتمي إلـي أسرة مارتيناكيوسMartinakios، التي كانت يودوكيا نفسها أحد أفرادها، ومن ثم رأت فـيما مؤيـداً أهلاً للثقة، كما أن هذه الأسرة ترتبط مباشرة بصلات وثيقة بالأسرة العموريـة، وكمـا يشـير كاتـب سـيرة ثـيوفانو إلي أنها تحمل في عروقها الدماء

٣٣– كـان لـيو السـادس علي علاقة بزوى ابنة ستيليانوس زاوتزس Stylianus Zautzes مستشار باسيل المقدونـي ، واستمرت هذه العلاقة حتى بعد زواجه من ثيوفانو ، وقد تزوجها بعد وفاة زوجته مباشرة ، لمزيد من التفاصيل ، انظر،

Tougher, Sh., *The Reign of Leo VI, 886-912 :Politics and People*, Brill, 1997, 136-8.

وسام عبد العزيز فرج ، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ، الإسكندرية ، ١٩٩١، ٣٥–٣٦

٣٤– Treadgold, *Bride-Shows*, 406.

٣٥– Garland, *Women and Power*, 110-11.

٣٦– Schreiner, P., 'Reflexions sur la famille imperiale à Byzance (VIII^{e}- X^{e})', *B*,61(1991),181-93,esp.189.

٣٧– Mango, *Eudocia Ingerina* , 17-27.

الإمـــبراطورية وأن ذلـــك كان أحد العوامل التي دفعت يودوكيا إلي اختيارها من بين العذاري الصغيرات، ومن المؤكد أن يودوكيا كانت تعرف ثيوفانو مقدماً وأنها خططت مـــنذ الـــبداية لاختـــيارها، ولاشك كذلك في أنه كان من الأهمية بمكان بالنسبة لباسيل المقدونـــي أن يوثق صلات أسرته المقدونية الناشئة بالأسرة العمورية السابقة من خلال أسرة مارتيناكيوس[٣٨].

ومـمـــا ســـبق يمكـــن القول بأن عروض العرائس الإمبراطورية كانت وسيلة إتـــبعها أباطـــرة بـــيزنطة منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع لتحقيق أهداف سياســـية ودينـــية معيـــنة مـــن خلال تزويج ورثة العرش القصر بعرائس يخدمن هذه الأهـــداف، ولذلك فقد أقيمت تحت إشراف كامل من قبل الأوصياء سواء كانوا نساءاً أو رجـــالاً، وظهـــرت خلالها رغباتهم واضحة دون اكتراث برغبات الأبناء، وربما كان جينكينز Jenkins محقاً في قوله "إن عروض العرائس الإمبراطورية لم تكن إلا اجراء أو تقلـــيداً شكلياً، إذ المعروف أن العروس تكون معروفة مسبقاً ومتفق عليها[٣٩]"، وعلي ذلك لـــم يكـــن الجمـــال هـــو العـــامل الأساســـي في اختيار العروس كما ذهب بعض الباحثين[٤٠]، بل كان أحد الشروط الأساسية التي ينبغي أن تتوافر في زوجة الإمبراطور المقـــبل، خاصـــة وأنـــه لا يتناقض مع الاعتبارات السياسية والدينية التي سبق ذكرها، وبالإضـــافة إلـــي الجمـــال وضـــعت الصفات الأخلاقية أيضاً في الاعتبار عند اختيار العروس، وأخيراً كانت نبالة الأصل أحد الشروط الضرورية في اختيار العروس، ففي العـــروض الخمسة تم اختيار العرائس من الأسرة الإمبراطورية وطبقة النبلاء المحليين فـــي الأقاليم، ولكن إذا كانت نبالة الأصل أحد المؤهلات الرئيسية للعروس، فإن الثروة لـــم تكـــن كذلـــك، ففي العرض الأول كانت أسرة ماريا الأمنية نبيلة وفقيرة في الوقت نفســـه، ولم يكن من بين الفائزات في هذه العروض واحدة يبدو عليها الثراء الفاحش أو تنتمي إلي أسرة ذات سلطة ونفوذ، وربما كان ذلك أمراً حرص عليه الأوصياء أنفسهم لتحقيق أهدافهم السياسية والدينية السالفة الذكر.

٣٨- Tougher, *Leo VI*, 134-135.

٣٩- Jenkins,R., *Byzantium : the Imperial Centuries A.D. 610-1071*, Newyork.1966,98.

٤٠- Treadgold, *Bride-Shows*, 410 . Schreiner, *Famille imperiale*. 189.

إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل

محمـــود إســـماعيل

مصـــــر

معلـــوم أن الخـــلاف بين المؤرخين يكمن أساساً حول مسألة التفسير أو الـــتأويل، أي معـــرفة الأســـباب والعلل الكامنة وراء أحداث التاريخ ووقائعه، ذلك أن المـــؤرخ حيـــن يؤرخ لموضوع ما عليه أن يجيب علي أسئلة ثلاثة أساسية هي: ماذا حـــدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ والإجابة عن السؤالين الأولين لا تثير أي خلاف، إنمـــا يشـــجر الخلاف أصلاً في الإجابة علي السؤال الثالث، لا لشيء إلا لأنها تعكس مـــنظور أو "مخيال" المؤرخ الذي هو نتاج ثقافته وأيديولوجيته. ومعلوم أن الأيديولوجيا تفت في مصداقية المعرفة وتلونها بألوان قد تكون مجافية للحقيقة.

ولعـــل هـــذا يفســـر دعوة بعض المدارس التاريخية إلي التغاضي عن تفسير الوقـــائع التاريخية والاهتمام فقط بتحقيق مصداقية الأخبار. لكن هذه الدعوة تنقص من قـــدر المـــؤرخ. كـــذا مـــن نتاج عمله وتجعله "إخباريا" ليس إلا، وتحكم علي جهوده بالقصور، لأن علماً بلا تعليل ناقص في التحليل الأخير.

فغايـــة العلـــم هي الوقوف علي الأسباب والعلل التي تحرك الظواهر الطبيعية والإنسانية على السواء. ومن ثم أصبح قانون "السببية" أهم قوانين العلم علي الإطلاق.

وفـــي مجـــال العلـــوم الإنسانية – ومن ضمنها التاريخ بطبيعة الحال – جري الاهـــتمام بالتعلـــيل أو الـــتأويل أو التفســـير، إلي حد ظهور علم لهذا الغرض هو علم 'الهرمينيطـــيقا". وتعاظم دور هذا العلم إلي درجة الطموح إلي التنظير باعتباره أقصي درجات العلم وأسماها.

معلـــوم أن نشأة علم التاريخ عند المسلمين كانت نشأة عملاقة، بشهادة جمهرة الدارســـين والباحثيـــن، لذلـــك اهتم المؤرخون الرواد بالتعليل والتفسير باعتباره مطلباً أساســـياً لاكـــتمال عملـــية كتابة التاريخ، وتطورت جهود الأجيال التالية من مؤرخي الإسلام لتصل مرموقة في هذا المجال بولوج باب "فلسفة التاريخ".

مـــن هنا تطمح هذه الدراسة إلي معالجة إشكالية التفسير – التي لطالما اختلف القدمـــاء والمحدثـــون بصـــددها – عند المؤرخين المسلمين الأوائل بهدف إثبات خطأ الأحكام المتواترة عن تبني هؤلاء المؤرخين جميعاً الرؤية الدينية للتاريخ، بما يعني أن العـــناية الإلهية هي التعليل الأول والأخير لوقائع التاريخ وأحداثه. كذا إثبات خطأ زعم القائلين بأن فلسفة التاريخ لم يطرقها مؤرخ قبل ابن خلدون.

ما سنحاول إثباته بالفعل هو أن المؤرخين المسلمين الرواد ولجوا باب التفسير إلـــي حـــد التنظير منذ نشأة علم التاريخ الإسلامي حول منتصف القرن الثاني الهجري وحـــتى منتصـــف القرن الخامس الهجري، حيث بلغ تطور الفكر التاريخي ذروته، لقد مـــر الفكـــر التاريخي الإسلامي خلال هذه الفترة بحقب ثلاث، تمثل الأولي منها طور النشأة، وتبدأ من منتصف القرن الثاني إلي منتصف القرن الثالث الهجريين، وهي فترة شـــهدت ســـيادة نمط الإنتاج البورجوازي علي الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ونشأة العلـــوم وتدويـــنها، كانعكاس للمد الثقافي المتعاظم والمعبر عن عطاء الطبقة الوسطي. وفـــي مجـــال علم التاريخ، وضعت مناهجه، وتحددت موضوعاته، وطرق المؤرخون باب التفسير علي استحياء.

أمـــا المـــرحلة الثانـــي: وتشمل الفترة ما بين منتصف القرنين الثالث والرابع الهجريـــن، فقـــد سادها نمط الإنتاج الإقطاعي الذي عكس تأثيره علي سائر الأصعدة ومـــنها الصـــعيد الثقافـــي بطبـــيعة الحال. إذ انتكست النهضة العلمية و الثقافية بغلبة الاتجاهـــات الغيبـــية والنصـــية علي حساب المد العقلاني الذي لازم مرحلة التأسيس. وبديهي أن ينتكس الكر التاريخي، موضوعاً ومنهجاً ورؤية، بغلبة الرؤية اللاهوتية.

أمـــا المرحلة الثالثة: وتشمل الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فقـــد ســـادها النمط البورجوازي في الإنتاج مرة أخري وأخيرة، الأمر الذي أسفر عن تأثـــيرات إيجابـــية سياســـياً واجتماعيا وثقافيا، وبديهي أن يتأثر الفكر التاريخي، بتلك الـــتحولات، ليصـــل إلي أوج ازدهاره ! حيث بلغ التفسير العلمي العقلاني للتاريخ مداه بحيث شهد العصر بواكير فلسفة التاريخ.

تلــك تقدمه عامة، تعرض لغاية الدراسة وتحدد معالمها، تعد توطئة لبسط هذه المعالم مفصلة موثقة.

فـــي طـــور نشـــأة علم التاريخ الإسلامي، يتفق الدارسون علي أن هذه النشأة الإيجابـــية كانت تعبيراً عن مد ثقافي مزدهر، باعتبار التاريخ من أهم مقومات الثقافية العربـــية والإســـلامية[1]. وقد أسهم في تلك النشأة جيل من المؤرخين الأفذاذ، كالطبري، والـــبلاذري، وابـــن طـــيفور، واليعقوبـــي، وابن قتيبة، وابن عبد الحكم وغيرهم ممن اعتبرهم ابن خلدون رواد علم التاريخ في الإسلام[2].

وبتتـــبع منحـــي ســـير هؤلاء المؤرخين[3] نجد أن معظمهم ينتمون إلي الطبقة الوســـطي التـــي تبنـــت النهضة العلمية والفكرية في الإسلام، فكانوا موسوعي الثقافة ليبرالي التفكير[4]، بما أهلهم لتأصيل ركائز علم التاريخ موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

ومـــا يعنينا في هذه الدراسة هو الوقوف علي طبيعة هذه الرؤى، أو بالأحرى موقفهـــم مـــن إشـــكالية التعلـــيل والتأويل، وفي هذا الصدد، يخطئ من أن تصور أن الحديـــث عـــن هذه الرؤى عند هذا الجيل من المؤرخين أمر سابق لأوانه[5]، صحيح أن جـــل اهتمامهم انصب علي الأخبار وتحقيقها، لكنهم لم يغفلوا تعليلها وتحليلها، وفي هذا المعنـــي ذكـــر اليعقوبي: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا إلي اعتمادي في كل ما أخطرت ذكـــره فـــيه ممـــا شرطت أني راسمه فيه إنما هو علي ما رويت من الأخبار التي أناد ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلي روايتها، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل".

---

[1] جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام، الترجمة العربية، ص١٥٣، بيروت ١٩٦٤.

[2] مقدمة ابن خلدون، ص٤، القاهرة، ب .ت.

[3] راجـــع: محمـــود إســـماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، جـــ١، ص٢٨٦، ٢٨٧، الدار البضاء ١٩٨١.

[4] روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، الترجمة العربية ص٩٢، بغداد ١٩٦٤.

[5] أنظر: علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ص٣٣، القاهرة، ب . ت .

والـــدارس لأخبار اليعقوبي[6] لا يعدم وجود رؤية خاصة للتاريخ فحواها الربط بيـــن حركة الأحداث وحركة الأفلاك، وعند غيره من معاصريه نقف علي رؤي أخري وضـــعانيه وعلمـــيه، فالـــبلاذري – مـــثلاً– عول علي تأثير الاقتصاد في الصيرورة التاريخـــية في كثير من الأحيان. أما ابن قتيبة فهو يمحور وقائع العصر الراشدي حول مســـألة الصـــراع علـــي الخلافة، واتخذ بعض المؤرخين من ذكر عبارات بعينها في مواضـــع بعيـــنها أيضاً – مثل والله أعلم – ما يدل علي موقف مضمر للمؤرخ يفهمه القـــارئ اللبيب، نظراً لوجود محاذير وإكراهات تحول دون الإفصاح ولا غرو، فمعلوم أن الحنابلة رجموا دار الطبري بالحجارة[7].

ولعـــل تلـــك المحاذيـــر والإكـــراهات كانت من وراء تبني بعض المؤرخين تفســـيرات أســـطورية أو تيولوجية أوردوها من باب التقية[8]. كذا تعويل البعض الآخر علـــي التفســـيرات العنصـــرية[9] والطائفـــية تحـــت تأثير تواجد الشعوبية والصراعات المذهبية[10].

وقـــد تعاظمت هذه الرؤى اللاعلمية خلال المرحلة التالية التي شهدت ظواهر التمزق والفرقة السياسية وتفاقم النعرات العصبية والعنصرية وانتكاسة الفكر العقلاني، كنتيجة لغلبة الإنتاج الإقطاعي، مع تواجد شاحب للبورجوازية.

بديهـــي أن يتأثر الفكر التاريخي بتلك المعطيات السلبية، ولا أدل علي ذلك من تدهـــور مكانـــة علـــم الـــتاريخ في نظر مصنفي العلوم فأسقطوه بالكلية من مصنفاتهم باعتـــباره يفـــتقد إلي صفة العلمية[11]. وهو أمر لفت نظر مؤرخ فذ كالمسعودى، حين اعتـــبر مؤرخـــي العصـــر مســـئولين عـــن تدهور علم التاريخ "وإبادة وآثاره وطمس

---

[6] كتاب البلدان: ص٣٥٨، ليدن ١٨٩١.

[7] ياقوت: معجم الأدباء، ج١٨، ص٩٥، طهران ١٩٦٥.

[8] عن مزيد من المعلومات في هذا الصدد، راجع: محمود إسماعيل سوسيولوجيا، جـــ١، ص٢٩٣ – ٢٩٤.

[9] راجع علي سبيل المثال: أبو العرب تميم: طبقات علماء إفريقية، ص١٤ وما بعدها، تونس ١٩٦٨.

[10] عن المزيد من المعلومات: راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـــ١، ص٢٩٧، ٢٩٨.

[11] روزنتال: المرجع السابق، ص٤٨.

مـــنارة[١٢]"، خصوصـــاً من أصبح منهم من "مؤرخين البلاط"، أو ممن أشتغل بالتاريخ خدمـــة لعلـــم الحديث بالأساس[١٣]، فكانوا لذلك محدثين أكثر منهم مؤرخي، بشهادة ابن الـــنديم[١٤] لذلـــك لـــم يخطئ باحث ثقة حين اعتبرهم "أنصاف مؤرخين[١٥]"، فهموا غاية الـــتاريخ فهما قاصراً مؤداه التبرير للسلاطين وإمتاعهم في مجالس السمر، حيث غدت "الأسمار مرغوباً فيها ومشتهاة .. فصنف فيها الوراقون وكذبوا[١٦]".

لقـــد أفسد "مؤرخو السلطة" علم التاريخ إلي حد تطويع الدين لخدمة السلطان، فها هو جعفر بن محمد المر وزي (ت ٢٧٤ هـــ) يصنف في هذا المعني كتاب "تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان[١٧]"، بينما أغفل تاريخ الشعوب ووصمها بأقبح النعوت، وفي هذا الصدد ألف الكثير عن "مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغنام[١٨]".

وجـــري اعتبار ثوراتهم الاجتماعية من قبيل "المحن" و "الفتن[١٩]" التي يجب أن يقمعها السلطان دون هوادة.

بديهـــي والأمـــر كذلك، أن تنزلق رؤى المؤرخين إلي التفسيرات الأسطورية والإثنـــية والطائفـــية وتقديـــس الأبطـــال المؤيدين بالعناية الإلهية[٢٠]، كما فشت الرؤى التهويمية التي تربط حركة الأحداث بالطوالع والنجوم[٢١].

---

[12] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـــ١، ص٥، بيروت، ب.ت.

[13] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية، جـــ٣، ص٦٨، القاهرة ١٩٩١.

[14] الفهرست، ص٢٣١، ٢٣٢، القاهرة، ١٣٤٨هـــ.

[15] أنظر: شاكر مصطفي: التاريخ والمؤرخون العرب، جـــ١، ص٢٠٤، بيروت١٩٨٣.

[16] ابن النديم: المرجع السابق، ص٣٠٨.

[17] نفسه، ص١٥٠.

[18] نفسه، ص١٥٢.

[19] صنف الشيباني (ت ٢٧٣هـــ) كتابين يحملان هذين العنوانين.

[20] سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي، ص١٢١، قطر ١٩٩٧.

[21] روزنتال: المرجع السابق، ص١٥٩.

أمـــا عـــن مؤرخي المعارضة فقد احتفظ بعضهم بالكثير من إيجابيات مرحلة التأســـيس، فكتبوا التاريخ علي أساس "الدراية" لا "الرواية" معولين في التعليل والتفسير علي العقلانية والمنطق، منددين بمفاسد السلطة ورجالاتها[٢٢].

ومـــع ذلـــك تأثر البعض الأخر سلباً بمعطيات العصر السياسية والثقافية، فلم تخـــل مصنفاتهم من تهويم الرؤية والشطط في الرأي. لقد كتب هؤلاء في الغالب الأعم وفـــق مـــنطق "الدفـــاع" عـــن مذاهـــبهم وأيديولوجـــياتهم، فاتسمت كتاباتهم بالسجالية والتعصب، كما روجوا لأفكار تهويمية أسطورية كفكرة "المهدي" أو "المخلص" مما فت في قيمة ما صنفوا من تواريخ دارت معظمها حول عقائد مذاهبهم ورجالاتهم[٢٣].

فعلـــي سبيل المثال أرخ شليمة محمد بن الحسن (ت ٢٨٠هـــ) لبعض حركات المعارضـــة، لكـــن كتابه صودر وأحرق، كما دون سعد بن عبد الله القمي (_ت ٢٩٩ هـــ) كتاباً عن الشيعة لاقي نفس المصير، وإذ أفلت كتاب "مقاتل الطالبين" للأصفهاني، مـــن المصادرة فيعد أنموذجاً للكتابات ذات الطابع المأساوي "البكائي" التي تتعالى فيها التشنجات العاطفية علي التفسيرات العقلانية والواقعية.

وفـــي نفـــس المنحي صنف مؤرخو المعتزلة عن مذهبهم ورجالاته وأعلامه، كما هو حال البلخي (ت ٣١٩هـــ) في كتاب "طبقات المعتزلة"، أما مصنفات المتصوفة فـــاتخذت فـــي الغالب الأعم طابعاً أخلاقياً، إذا استهدف مصنفوها تغيير الواقع بالنصح والوعـــظ أو الدعـــاء مـــن أجل الخلاص، يفهم هذا من مصنفات صوفية مثل "مواعظ الخلفاء" و "ذم المنكر" و " الفرج بعد الشدة" .. الخ وكلها تتنكب طريق العقلانية وتعول علي الخرافات والكرامات والخوارق.

علـــي أن الـــرؤى العقلانـــية لم تختف تماماً خصوصاً عند نفر من مؤرخي المعارضـــة. بـــل لا نعـــدم وجـــود ثلـــة من المؤرخين الذين ارتقوا بالكتابة التاريخية موضـــوعاً ومنهجاً، تعليلاً وتحيليلاً وتأويلاً. ويرجع ذلك فيما نري إلي أن الصراع بين

---

[22] عن نماذج لهذا الصنف من المؤرخين: راجع: ابن النديم: المرجع السابق، ص١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١.

[23] نفسه،ص١٨٢،١٢٧.

الـــبورجوازية والإقطـــاع، ومـــن ثم بين العقل والنقل لم يحسم حسماً قاطعاً، مما أتاح للقـــوي البورجوازية وفكرها العقلاني النقدي التجريبي مكاناً في الساحة وإن كان ضيقاً ومحاصـــراً. وفي هذا الصدد يعد المسعودى (ت٣٤٦ هـــ) المؤرخ أنموذجاً معبراً عن هذا التيار الأمر الذي يجعلنا نتوقف عنده ملياً للوقوف علي رؤيته العلمية للتاريخ.

ولعـــل فـــي حياة المسعودى إبان أواخر عصراً "الإقطاعية المرتجعة" وأوائل عصـــر "الصـــحوة البورجوازية الثانية" ما يلقي الضوء علي عقلانيته وموسوعيته[٢٤]. يضاف إلي ذلك كذلك كونه تاجراً ينتمي إلي الطبقة الوسطي اجتماعياً، وإلي الاعتزال الـــزيدي مذهبـــياً[٢٥]، مما أهله ليتسم مكانة مرموقة بين مؤرخي عصره. ولعل اشتغاله بالجغرافـــيا ومزجه إياها بالتاريخ وتعويله علي الرحلات طوال أربعين عاما[٢٦] كان من وراء اتساع منظوره ورحابة مخياله ومن ثم اتسام رؤيته التاريخية بالعقلانية والواقعية والشمول.

فـــي كـــتابه "مـــروج الذهب" تأريخ عالمي متطور بالقياس للتواريخ العالمية الســـابقة، ففـــي عرضـــه الأحـــداث مـــزج بين التاريخ وعمل الكلام فالعالم في نظره "مخلـــوق"[٢٧] كمـــا يذهـــب المعتزلة وفي وصفه للأمم والشعوب مزج بين الإثنوغرفيا والـــثقافة أو وقوفـــه علـــي مـــا يمكـــن تسميته بـــ "الأنثروبولوجيا الثقافية" ومعلوماته الجغرافية حافلة بالتأويلات والتفسيرات التي تربط بين حركة التاريخ وحركة الكواكب، كـــذا بيـــنه وبين الجغرافيا الطبيعية، وفي هذا الصدد وقف علي تأثير التربة في الإنتاج الغذائي، وتأثير الأخير في طبائع وأمزجة البشر[٢٨].

---

[24] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـــ٢، ص ٤٧، ٤٨.

[25] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـــ١، ص٤ من مقدمة المحقق، بيروت، ب. ت.

[26] المسعودي، التنبية والإشراف، ص٧، ليدن، ١٨٩٣.

[27] مروج الذهب، جـــ١، ص٢٦.

[28] نفسه، ص٨٤، ٨٥

وحين عرض للعرب رصد أنماط حياتهم مميزاً بين مرحلتي البداوة "التوحش" والحضـــارة، مقدماً تصوراً متطوراً لطبيعة العمران البشري[٢٩] تأثر به ابن خلدون فيما بعد، وفي تأريخه للعالم الإسلامي اتسمت رؤيته بالشمول فجمعت بين التاريخ السياسي والحضـــاري في آن، كما أعمل ميزان النقد في الروايات قبل اعتمادها. بنفس الدرجة التي عول فيها علي الاستقراء والاستنباط في مجال التفسير[٣٠].

ولا نبالغ إذ نقرر أنه طرق باب "التنظير" حين عول علي شمول النظرة خلال الأزمـــنة الطويلة، فأتيح له "استخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه" علي حد قوله[٣١].

وفـــي كتابه "التنبيه والإشراف" نجد بدايات مقاربة "فلسفة التاريخ" ذلك أن هذا الكـــتاب يعد أخر ما صنف المسعودى، كما وأنه بمثابة "بانوراما" عامة لتاريخ البشرية، أفـــاد فـــيه من مؤلفاته السابقة، فلم يحفل بالأخبار وتحقيقها بقدر استنطاقها لتتبلور في صـــورة أحكـــام ومقولات أفاد في صياغتها من سائر المعارف المتاحة فقد أبرز مثلاً تأثـــير الجغرافيا في التاريخ السياسي فعرض لمباحث أشبه ما تكون "بالجيوبوليطيقا[٣٢]" كمـــا عـــرض لتاريخ العقائد في مباحث ذات صلة بالانثروبوجيا الثقافية وعلم الأديان المقـــارن، حيـــث تـــابع ورصـــد المشترك الإنساني العام في مجال الدين مبرز اسمه "التواصـــل" و "الاستمرارية[٣٣]" في صورة أقرب ما تكون إلي "الإنسانيات" المعاصرة، ولا غـــرو فقـــد تـــابع تأثـــيرها في التاريخ والحضارة الإسلامية[٣٤]، بما ينم عن نزعة "هيومانية" بعيدة عن التعصب والتحجر.

---

[29] نفسه، ص١٣٧ – ١٧٠.

[30] شاكر مصطفي، المرجع السابق، جـــ١، ص٥٢.

[31] مروج الذهب، جـــ١، ص٦.

[32] التنبيه والإشراف، ص٦،٥.

[33] نفسه، ص١٣٧ وما بعدها.

[34] نفسه، ص٢١٤، وما بعدها.

وفـــي عرضـــه للـــتاريخ الإسلامي أبرز الأسباب والعلل المباشرة والعامة[٣٥]، فطـــرق مجال الرأي والرؤية في آن، فإذا أضيف إلي ذلك إحكامه الصلة بين المعارف المخـــتلفة لـــتدخل ضـــمن موضـــوع التاريخ، نؤكد صدق حكم بعض الباحثين[٣٦] بأن المسعودى قدم الرؤية الحضارية للتاريخ.

ونذهـــب نحن إلي أبعد من ذلك فنعتبر المسعودى من رواد فلسفة التاريخ ولا مبالغة في ذلك ألبته، إذ نجد في مصنفة ما يشي بالرؤية البيولوجية للتاريخ حين تحدث عـــن "نشـــأة الـــدول وشبابها وهرمها وعلل جميع ذلك[٣٧]" ودعوته إلي ضرورة معرفة المـــؤرخ "كيف تدخل الآفات علي الملك وتزول الدول. وتبيد الشرائع والملل، والآفات الخارجـــية المفترضة لذلك[٣٨]"، لقد وقف بحق علي ما أسماه فلاسفة التاريخ المحدثون "بالظـــروف الموضـــوعية" التي هي نتاج عوامل داخلية وأخري خارجية تتضافر معاً لإحـــداث "حركـــية" الـــتاريخ وصيرورته. هذا فضلاً عن شمول هذه الصيرورة لسائر الظواهـــر الماديـــة[٣٩] والروحية التي توجدت في مخيال المسعودى وتأطرت في ذهنه تأطيراً عقلانياً.

كانت جهود المسعودى في مجال التفسير والتنظير مدخلاً أساسياً لازدهار الفكـــر التاريخـــي خـــلال القـــرن التالي من منتصف القرن الرابع إلي منتصف القرن الخـــامس الهجريـــن الـــذي شهد "صحوة بورجوازية" تركت أثراً إيجابياً في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة.

وبديهـــي أن يـــتطور علم التاريخ خلال قرن الازدهار هذا موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

---

[35] نفسه، ص٣١، وما بعدها.

[36] أنظر: شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـــ٢، ص٤٧.

[37] التنبيه والإشراف، ص٣.

[38] نفسه، ص٤.

[39] روزنتال: المرجع السابق، ص١٨٧.

ولعـــل من أسباب ومظاهر هذا الازدهار اكتساء الكتابة التاريخية طابعاً دنيوياً بعد اختفاء المؤرخ المحدث وظهور الكاتب والتاجر والوراق والأديب وحتى الطبيب.

مـــنها أيضاً الازدهار الذي عم سائر أصناف العلوم والفنون والآداب المختلفة ســـواء علـــي الصعيد المنهجي أو المستوي المعرفي، وكما كان معظم مؤرخي العصر ذوي ثقافة موسوعية، فقد أفادوا منها في مجال الكتابة التاريخية، ولعل من أهم جوانب تلـــك الإفادة اقتباس المشتغلين بالتاريخ الكثير من قواعد "المنهج العلمي التجريبي" الذي ترســـخ فـــي هـــذا العصر بفضل ابن الهيثم وابن سينا والبيروني وغيرهم كبديل عن اقتـــباس مـــنهج أهل الحديث، كما كان الحال إبان القرن السابق، بفضل ذلك كله أحتل علـــم الـــتاريخ مكانة جلي في كتب تصنيف العلوم[٤٠]، فقد أفرد الخوارزمي بابا "لأخبار الـــتاريخ" فـــي مصـــنفه "مفاتـــيح العلـــوم[٤١]" كما خصص ابن النديم فصلاً مطولاً عن "المؤرخين والتاريخ والنسابة[٤٢]" في كتابة "الفهرست" واعتبر إخوان الصفا علم التاريخ من العلوم الأساسية التي وظفوها لتثقيف الأتباع والأعوان.

ولـــيس جـــزافاً أن يعترف جل دارسي علم التاريخ الإسلامي بهذه النقلة التي أكتمل بفضلها العلم "فبلغ سن الرشد[٤٣]" واختلط المؤرخون طرائق وقواعد جديدة أثرت العلـــم موضـــوعاً ومـــنهجاً ورؤية[٤٤]، فتحول من الرواية إلي الدراية[٤٥] ولا غرو، فقد تطـــورت موضـــوعات الـــتاريخ المطـــروقة من قبل واستحدثت موضوعات جديدة،

---

[40] جب: المرجع السابق، ص٧٧.

[41] ص٦٠ – ٨٠، القاهرة ١٩٣٠.

[42] الفهرست، ص٣٧ وما بعدها.

[43] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـــ١، ص٢٠٣.

[44] ياسر نور، التأثير المنهجي لعلوم الحديث في مناهج المؤرخين المحدثين ص١٠١، ١٤٩، رسالة ماجستير، مخطوطة، المنصورة، ١٩٩٩.

[45] عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص٧٦، بيروت، ١٩٧٣.

كالاهـــتمام بالـــتاريخ الاقتصـــادي ومفـــرداته[٤٦]، ومـــزج التاريخ بالجغرافيا والسياسة والفلسفة[٤٧] والعقائد والذهنيات وغيرها من مقومات التاريخ الحضاري.

وشـــهدت المظـــان التاريخـــية تطـــوراً مماثلاً، فجري الاعتماد علي الوثائق والمذكـــرات الخاصـــة والآثـــار والـــنقود وغيرها، كما جري الاهتمام بنقد المصادر المكتوبة[٤٨]، فصنفت كتب خاصة في نقد الروايات والرواة، وغدت الأخبار المستقاة من المشاهد والعيان حجر الزاوية في المادة التاريخية المعول عليها.

وأفضـــي مـــناخ التســـامح والحـــرية الذي ساد العصر إلي كسر الإكراهات والمحاذيـــر التـــي كانـــت تغل يد المؤرخ في الكتابة، وتحول بينه وبين التزام الصدق والموضـــوعية، كما تقلصت السخائم العصبية والصراعات المذهبية والنعرات الإقليمية أو كـــادت لـــنجد بعـــض مؤرخي الفرس كحمزة الأصفهاني علي سبيل المثال ينصف العرب ويكتب بموضوعية عن أهل السنة رغم تشيعه[٤٩]، وحين صنف ابن النديم كتاب "الفهرســـت" خصصـــه لمـــا وقـــف علـــيه من مصنفات "عن جميع الأمم من العرب والعجم[٥٠]".

في ضوء تلك المعطيات الإيجابية وغيرها تطورت الكتابة التاريخية، وانصب الاهـــتمام علـــي التحليل والتعليل والتنظير خصوصاً بعد "استقرار الرواية"، واستهدف المؤرخون الوصول إلي الحقائق وتوظيفها في شحذ الوعي عن طريق التثقيف والتربية والتـــنوير[٥١]، كمـــا جمـــع بعض المؤرخين بين التاريخ وفلسفة الأخلاق، كما هو حال مســـكوية علـــي ســـبيل المثال حرصاً علي توخي الصدق وتحاشي الكذب[٥٢]. وفي هذا

---

[46] روزنتال: المرجع السابق، ص١٦٣.

[47] ابن النديم: المرجع السابق، ص١٢٠.

[48] ميتز (آدم) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ١، ص٣٤٠. القاهرة ١٩٥٧.

[49] بروكلمان: المرجع السابق، ص٦٠.

[50] الفهرست، ص٣.

[51] محمود إسماعيل: إخوان الصفا، ص٦٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٨.

[52] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٤٥٤.

الـــباب كتب أحد مشاهير مؤرخي العصر يقول: "إن التاريخ تجارب..... والرأي لقاح العقل، والتجربة نتاجه، والخير مقصد الحجى، والاجتهاد منهاجه[٥٣]".

ويشـــي هـــذا النص المقتضب بالكثير من خصائص الكتابة التاريخية في هذا العصـــر، ومـــا يعنيـــنا هو الوقوف علي تطور الفكر التاريخي خلاله في مجال الرأي والرؤية والتأويل والتنظير.

وأول ما يلاحظ في هذا الصدد، التعويل علي العقل في مجال التفسير[٥٤] بحيث عـــرف الـــبعض علم التاريخ بأنه "علم علل الأحوال[٥٥]" واشتهر البعض الآخر بإرداف ذكـــر الحـــدث "بذكر السبب[٥٦]" كما هو حال هلال الصابي ومسكويه علي سبيل المثال ولا غـــرو. فقـــد أخضـــع مؤرخـــو العصر الكثير من الموضوعات اللاهوتية والغيبية لســـلطان العقـــل[٥٧] فقد اتسعت رؤاهم لتجمع الكون برمته في وحدة كلية واحدة، يقول أحدهـــم "فالـــناظر في كتابنا هذا كالمشرف المطلع علي العالم مشاهداً حركاته وعجيب أفعالـــه[٥٨]" ولـــم يجـــد جلهم غضاضة في الجمع بين الدين والعلم[٥٩]، فتناولوا الكثير من القضـــايا الدينية دون خوف أو وجل. وحسبنا أن حمزة الأصفهاني[٦٠] علي سبيل المثال جمـــع بيـــن الـــتاريخ الدينـــي والتاريخ الدنيوي في مصنف واحد، كما جمع أيضاً بين التاريخ والفلسفة، وكان ذلك إيذانا بظهور التاريخ المفلسف، وفي هذا الصدد قام إخوان الصـــفا بـــدور بـــارز أفاد منه المعاصرون واللاحقون، وحسبنا الإشارة إلي بعض ما سطروا في رسائلهم عن قيام الدول وسقوطها.

---

[53] أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص٤، القاهرة ب. ت.

[54] عبد العزيز عزت، ابن مسكوية، ص٩٢، القاهرة ١٩٤٦.

[55] أبو شجاع: المرجع السابق، ص٥.

[56] هلال الصابي: تاريخه، ص٣٣٦، القاهرة، ب. ت.

[57] سالم أحمد محل: المرجع السابق، ص١٢٢.

[58] المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، جـــ١، ص١٧.

[59] روزنتال: المرجع السابق ص٢٠١.

[60] أنظر: حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص٢٧، برلين ١٣٤٠هـــ.

يقــول الإخوان[٦١] "أعلم يا أخي بأن أمور هذه الدنيا دول ونوب تدور بين أهلها قــرناً بعد قرناً ومن أمة إلي أمة، ومن بلد إلي بلد... واعلم بأن كل دولة لها وقت منع تبــتدئ وغاية إليها ترتقي، وحد إليه تنتهي، فإذا بلغت أقصي غاياتها، ومدي نهاياتها، تســارع إلــيها الانحطــاط والنقصــان، وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخريــن مــن القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كي يوم يقوي هذا ويضعف إلي أن يضمحل الأول المقدم، ويستمكن الآتي المتأخر.

ونعــتقد أن الكثيريــن[٦٢] من صفوة مؤرخي العصر كانوا ضمن هذه الجماعة ولعــل مــن أشــهرهم مسـكويه (ت ٤٢١هــ) الذي ترأس مدرسة ضمت أبا شجاع والصابي والبغدادي والبيروني وغيرهم. ونظراً لأهمية ما تضمنه كتابه "تجارب الأمم" من آراء ورؤى في تفسير التاريخ، نتوقف عنده لرصد بعض مقولاته وتنظيراته.

يجمــع الدارسون علي أن مسكويه اختط للكتابة التاريخية مساراً جديداً قوامه تحويــل الوقــائع إلي أحكام ومقولات تبدأ بالتدبير الذي يسبق الحدث، ثم ذكر الحدث كتجربة إنسانية، ثم تعليل تلك التجربة، وأخيراً ما تمخضت عنه من دروس وعبر، لقد اعتــبر مسكوية التاريخ مستودعاً للتجربة الإنسانية، وعنوان كتابة "تجارب الأمم" شاهد أمين علي ذلك.

ومــا يعنيــنا إثباته أن رؤية مسكوية للتاريخ من نتاج عوامل شتي، منها كونه زيدياً اعتزالياً جمع بين عدل واعتدال المذهب الزيدي وبين عقلانية المعتزلة.

مــنها أيضــاً حظــه العريض من تحصيل علوم عصره الطبيعية والرياضية والفلســفية والأدبية والاجتماعية، وإلإجتماعية، وإفادته منها جميعاً في صياغة منظوره التاريخي.

---

[61] رســائل إخــوان الصفا، جــ١، ص١٨٠، بيروت، ب. ت. وعن مزيد من النصوص في فلسفة التاريخ عند الإخوان، راجع: محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، ص٥٩ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٠.

[62] أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٧، عبد الله العروي العرب والفكر التاريخي، ص٣٥٠، بيروت ١٩٧٣.

والجديـــد الـــذي قدمه هذا المنظور يكمن في اطراح كل ما لا يقبله العقل حتى ولـــو كان مقدساً والإلحاح علي "ما كان تدبيراً بشرياً لا يقترن بالإعجاز[٦٣]" لقد أثبت أن الأحداث والوقائع التاريخية نتيجة فعاليات بشرية مسبوقة بالتفكير والتدبير[٦٤].

وقـــد ساقته هذه النظرة إلي الاهتمام بالجوانب الاقتصادية بمفرادتها الدقيقة هو "ما لم يلفت إليه غيره، وقد يقف علي أمر صغير قد يكون فيه درس كبير[٦٥]"، ومن هنا عول علي النظرة النقدية للمرويات، واعتمد فيها ما يقبله العقل، كما اعتمد علي حصاد مشـــاهداته وصـــلاته واســـتخلص منها جميعاً مادة كتابه الذي اعتبره البعض[٦٦] أهم ما كتـــب فـــي التاريخ الإسلامي، لقد نظر مسكوية إلي الروايات التي حوتها كتب التاريخ باعتبارها محض "أخبار تجري مجري الأسمار والخرافات لا فائدة منها غير استجلاب الـــنوم بهـــا[٦٧]"، ومـــن هنا حرص اشد الحرص علي قياس الأخبار علي العقل المنوط بتمحيصها أولاً، ثم استكناه عللها بعد ذلك.

مـــن الجديـــد الـــذي تفـــرد بـــه مسكويه أيضاً، إدماج الراي في التجربة[٦٨]، واســـتخلاص العوامـــل المؤثرة من هذا الدمج في صياغة الأحداث الكبري، وفي هذا الصـــدد أولي مسكويه السياسات الاقتصادية اهتماماً كبيراً بأعتبارها العامل المؤثر في السياسة[٦٩] بل في العمران كله[٧٠].

وحـــق لنا أن نسجل له سبقاً فريداً حين فطن إلي مسئولية الطبقة الوسطي عن خـــراب العمـــران فـــي العالم الإسلامي الوسيط[٧١]، وتفسير حركات العيارين وثورات

---

[63] مسكويه: تجارب الأمم، جـــ١، ص٣، طهران ١٩٧٨.

[64] نفسه ص١٥٠.

[65] أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـــ١، ص٢٠٨، القاهرة ١٩٦٦.

[66] روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٦.

[67] تجارب الأمم، جـــ١، ص٢٢.

[68] مرجويوث: المرجع السابق، ص١٢٣.

[69] نفسه، ص١٤٣.

[70] تجارب الأمم، جـــ٢، ص٦٩، القاهرة، ب. ت.

[71] نفسه، ص١٤٣.

العــوام بالسياسات والإجراءات الإقتصادية المشتطة[٧٢]. وفق نفس الرؤية فسر استقرار الأحــوال السياســية وازدهار العمران بالسياسات الإقتصادية الرشيدة[٧٣]، لقد كان بحق أول مؤرخ إسلامي يفطن إلي أهمية التفسير المادي للتاريخ.

فــي نفس المكانة نضع أبا لريحان البيروني (ت٤٤٠هـ) كمؤرخ طفر بالفكر التاريخي طفرة كبري، خصوصاً في مجال التفسير والتنظير.

كــان البيروني كمسكويه والمسعودي شيعياً زيدياً إعتزالياً، إشتغل بالسياسة ثم لفظهــا إلــي العلــم والمعــرفة[٧٤]، فحــاز قصب السبق في الإلهيات والمنطق والفلك والجغرافــيا إلــي جانب التاريخ بطبيعة الحال، وأسهم إسهامة كبري في تطوير المنهج العلمي التجريبي، وحسبه أن كان أول من تحدث عن "القانون" العلمي كمصطلح[٧٥].

كتب البيروني عدداً من المؤلفات في التاريخ، لم يبق منها سوي كتاب "تحقيق مــا للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة" وكتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وما يعنيــنا هــو الوقــوف علي رؤية البيروني للتاريخ أو بالأحري ما أضافه من جديد في مجال التفسير والتنظير.

يعد الكتاب الأول تاريخاً حضارياً للهند، مقارناً بحضارات الأمم الأخري، بما يشــي بأتساع "المخيال" التاريخي لمؤلفه، فضلاً عن ثقافته العريضة والموسوعية التي تتمثل في احتواء الكتاب علي دراسات معمقة في العقائد والإتنولوجيا والأنثروبولوجيا، إلــي جانب أبحاث أخري في الميتافيزيقا والطبيعة، مزج البيروني بينها جميعاً، وصاغ هذا المزيج صياغة فلسفية معمقة[٧٦].

---

[72] نفسه، ص٩١.

[73] نفسه، ص١٢٨،١٢٧.

[74] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة، ص١٠، ١١ من مقدمة المحقق، بيروت ١٩٨٤.

[75] راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـ٢، مجلد٢، ص ٤٠، ٤١، القاهرة ٢٠٠٠.

[76] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، ص٤ وما بعدها.

وبـــرغم وفرة وزخم تلك المعلومات إلا أن البيروني صنفها وبوبها في تسلسل واتســاق يـــنم عن إدراك ووعي بالصلة الوثيقة بين المعارف المختلفة، وقدرة في فهم اصطلاحاتها.

والأهـــم مـــن ذلك ما قدمه من رؤية "أنطولوجية" تجمع كل ظاهرات الوجود المحســـوس والمعقـــول في وحدة واحدة، كذا النظر إلي الأمم والشعوب المختلفة نظرة مـــتوحدة أيضـــاً، تأسيســـاً علـــي وجود "مشترك إنساني عام" في القيم والحضارة، فقد تساوت في هذا المعني جميع الأمم[٧٧]، لذلك يعد الكتاب شاهداً علي منهجية جديدة تعالج موضوعات جد مبتكرة في صياغة فلسفية منطقية.

ولا جـــدال فـــي أنـــه قـــدم رؤيـــة فلسفية تجمع بين إنجازات العلوم المختلفة والتجارب البشرية التي أفرزتها في منظومة واحدة.

وفـــي هذا الصدد يقف الدارس علي مقولات هامة في فلسفة التاريخ، منها أن قـــيام الدول لا يتحقق "إلا بأجتماع الملك والدين[٧٨]"، منها أيضاً الوقوف علي تأثير البعد الطبقـــي بمعـــناه العلمـــي في صياغة الوقائع والأحداث، تأسيساً علي أن الطبقات نتاج "عمـــل أو صـــناعة أو حـــرفة[٧٩]"، مـــنها أيضـــاً وجود علاقة عضوية بين المحسوس والمعقول[٨٠] انطلاقاً من فلسفة "وحدة الوجود" فالعالم نتاج أفعال بشرية تصنع "العمران" وهو "معمور بالحرث والنسل[٨١]" والحضارة "مشترك إنساني عام[٨٢]".

نستخلص مما سبق استناد فلسفة التاريخ عند البيروني علي العقل النقدي أولاً، والوجـــود المـــادي ثانياً، والفعل البشري أخيرا[٨٣]، لذلك كان علي وعي تام بتفرده فيما توصـــل إليه، كما كان حريصاً علي تقديم دروس تعليمية للمؤرخين عن شروط الكتابة

---

[77] نفسه، ص١٣٨.

[78] نفسه، ص٥٥.

[79] نفسه، ص٧٠.

[80] نفسه، ص٧٨.

[81] نفسه، ص٣٥.

[82] نفسه، ص١١٩.

[83] نفسه، ص١٠٧.

وإشـكالياتها ومرجعياتها ومناهجها، وهي دروس تفرد بها عن رؤية ووعي، يقول في ذلـك "لقـد أعيتنـي المداخل فيه (أي ما توصل إليه) مع حرصي الذي تفردت به في أيامي[٨٤]".

ومـن أهـم مـا استحدث البيروني في مجال المنهج بخصوص "المرجعيات" حكمـه بأن ما يحصله المرء عياناً أهم بكثير مما يعرفه سماعا "فليس الخبر كالعيان.. لأن العـيان هو إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده ... أما الخبر فيكون عـن الشـيء الممكن الوجود[٨٥]" وفي حديثه عن الأسباب التي تحول دون الموضوعية فـي الكـتابة التاريخـية يقول: "وللخبر آفات.. وفيه الصدق والكذب"، ورد الكذب إلي "تفـاوت الهمـم وغلبه الهراش والنزاع علي الأمم" فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسـه فيعظم به جنسه... ومن مخبر عن متقرب إلي خبر بدناءة الطبع أو متقياً لشر.. ومن مخبر عن جهل وهو المقلد للمخبرين[٨٦].

ونعـتقد أنـه وقـف بذلك علي الأسباب الذاتية والموضوعية التي تحول دون المصـداقية. والأهم من ذلك أن البيروني طبق القواعد المنهجية هذه حين صنف كتبه في التاريخ.

أمـا عـن رؤيته التاريخية في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" فكانت أكـثر تفلسـفاً وأعمق نظراً، لأن الكتاب مصنف في التاريخ العالمي، قدم فيه البيروني صـورة للـتاريخ البشري والحضارة الإنسانية وفق منهج يرصد النتائج الهامة والآثار العمـيقة التـي وجهت التاريخ الإنساني كله، وغالبت الزمان والمكان لتقف شاهداً علي عظمـة الإنسـان، وفـي هذا الصدد فطن المؤلف إلي ما يمكن أن نطلق عليه "الزمان التاريخي" إذ نقف عليه من خلال جدل الزمان مع الأحداث، حيث يفرق بين الغث منها والثميـن، أما الغث فيذهب جفاء، وأما الثمين فيبقي لينفع الناس، وهذا الثمين هو الذي

---

[84] نفسه، ص١٢.

[85] نفسه، ١٣.

[86] نفسه، ص٦٤.

عــرض له البيرونـــي في كتابه بدلاً من "أعمال الملوك وأفاعليهم مما تمجه الأذان ولا تقبله العقول[٨٧]".

وبصـــدد التميـيز بين الغث والثمين في وقائع التاريخ، توسل البيروني بمنهج "الاســتدلال بـــالمعقولات، والقـياس بما يشاهد من المحسوسات" بعد "تنزيه النفس عن التعصب والتظافر وابتاع الهوي والتغالب بالرياسو[٨٨]".

لقـــد عـــول علي المحسوس في معرفة المنقول، ووقف علي الغائب من خلال معــرفة الشـــاهد، تأسيســاً علـــي وحـــدة الوجود المعرفي، وقياساً علي وحدة الوجد الأنطولوجي. ومن خلال ذلك قدم البيروني تأريخاً مصفي بعيداً عن التحريف والزيف الذي "هو خداع للأمم[٨٩]".

هــذا المنهج القويم – فيما أري – جاء نتيجة ثقافة عريضة ودراسة في العلوم الطبيعـــية والرياضة، فضلاً عن نتاج جهوده للأرتقاء بالمنهج العلمي التجريبي، ولعله تأثر كذلك بهذا المنهج، حين انفرد بين مؤرخي العصر الوسيط بالوقوف علي أهمية ما نســميه الآن "بالمـــنهج الكمـــي" "الكوانـــتوم" المؤســـس علـــي الجداول والإحصاءات والمعـــادلات الرياضـــية وتوظيفها في دراسة العلوم الإنسانية[٩٠]، لذلك كله وغيره حق للأستاذ "سخاو" القول بأن البيروني يعد من أعظم العقول التي أنجبتها البشرية.

خلاصة القول، أن نشوء وتطور منهجية التفسير التاريخي كان مرتبطاً بتاريخ العلـــم والـــثقافة فـــي الإســـلام، وكلاهما كانا بالمثل نتيجة معطيات سوسيو تاريخية، اقتصادية واجتماعية وسياسية.

---

[87] البيروني: الآثار الباقية، ص١٠٠.

[88] نفسه، ص٤.

[89] نفسه، ص٢٠٤ وما بعدها.

[90] عن نماذج في هذا الصدد: راجع: الآثار الباقية، ص١٠٥ علي سبيل المثال.